العيد ..

قصة بقلم ثروت سرور

***

غابت الشمس في حضن الافق واخذت معها كل ما كان لها من اشعة ذهبية فوق نهاية الجدران الداكنة المنخفضة ، وراح الشيخ سعفان يؤذن لصلاة المغرب وقد غصت حارات القرية وازقتها بالعائدين من الحقول.

رجال يجرون انفسهم في اعياء والمعاول فوق اكتافهم او تجرهم الحمير وراءها وهي تسرع وايديهم قابضة في استماتة على ما فوق ظهورها من آلات الحرث ومعدات الري، ورجال قد استراحوا من زمن على ظهور الدواب وتدلت سيقانهم التي ينملها التعب على الجانبين في ارتخاء لا يخلو من متعة . بينما استقر بعضهم على احمال هائلة من البرسيم تكاد تخفي من تحتها الدواب الحاملة وايديهم ماسكة بزمام الماشية ، ونساء يحملن جرارا جافة نائمة على الرؤوس او جرارا قائمة مائلة يلمع على جوانبها الماء ، وقطيع من الغنم يسوقه فتيان وفتيات وهم يعدون من جانب الى اخر وبأيديهم الصغيرة خيزرانات في ضعف طولهم يجمعون بها ما يشذ في سيره عن القطيع .

وانطلق خليل من الدار كالعيار يركض في الزقاق ، وكأن ماردا جبارا من مردة الحواديث التي يزدحم بها رأسه قد ظهر له فجأة وراح يطارده، ولكنه ما لبث ان اضطر الى الوقوف وراء جاموسة اسماعيل ابو العيسوى الذي يركب حماره امامها ويمسك بزمامها في يده ، وانتظر على نار ريثما اتسع الزقاق قليلا فنفذ وسار في محاذاة الجاموسة ، وما لبث الزقاق ان ضاق ثانية فأسقط في يده ولم يستطع ان يسرع لا الى الامام ولا الى الخلف واحس انه سيموت مفقوعا بين الحائط وبطن الجاموسة ولكنه الهم في اللحظة الحاسمة وجلس القرفصاء ، ثم استأنف العدو بعد ان اتسع الزقاق مرة اخرى وهو يلهث من الفزع ويلعن في نفسه اسماعيل ابو العيسوى وجاموسته ، ويلعن كذلك الدخان المعسل والذين يبيعونه والذين يشربونه ايضا !!

فدكان ابو سريع بعيد وان كان اقرب الى دارهم من دكان الشيخ عوضى ، واللحظات التي انتظر قدومها منذ الضحى في سبيلها الى الضياع بسبب المحروقه علبة المعسل التي كلفه ابوه ان يشتريها !!

فقد ترك ضيوف ابيه وهم على وشك ان يفرغوا من عشائهم . وعما قليل سيخرج طبق العشاء بما عليه من بقايا الزفر والارز ليرتع وينعم اخوه الصغير فتحي منفردا بكل ذلك بينما يكون هو لا يزال يجري كالمجنون في حارات القرية وازقتها ! ولسعت الدموع خياشيمه وهي تتحرك وتلمع في عينيه دون ان تطفر منهما . وخيل اليه ان الغيظ من ابيه واخيه يكاد ان يخنقه ، فكأنهما متفقان على ان يضيعا منه الفرصة التي انتظرها بشوق طيلة النهار !

وانه ليذكر الان كيف كان اليوم حتى الضحى يمضي في حياته كسائر الايام ميتا وباردا كالعادة ، ويذكر ايضا كيف صحا فجأة وتثاءب ثم انتفض كالمارد يفيض بالحياة !

فقد دخل ابوه مسرعا وطلب الى امه ان تذبح الديك والبطة لان لديه ضيوفا غرباء جاءوا للعزاء في وفاة عبده بركات ولن يسعه بأي حال الا ان يمسك فيهم للعشاء والمبيت الليلة . وسمع خليل امه وهي تدافع بيأس للابقاء على حياة البطة التي زغطتها ما يقرب من نصف كيلة ذرة حتى اصبحت معدة ولائقة بالعيد ، وتحاول بكل قواها ان تقنعه بالاكتفاء بذبح الديك فقط . ولكن اباه حسم الامر وقتها بكلمات كانها النغم مشيرا عليها بذبح الاثنين معا مؤكدا لها بان العيد سيأتي ومعه الفرج . واحس خليل في ذلك الوقت بانه يحب اباه وامه كثيرا وبأنه ايضا يحب عبده بركات لانه مات . ودعا له بالرحمة وبان يدخله الله الجنة التي يقولون ان فيها حبة العنب في حجم البطيخة ، والبطيخة في حجم قبة الشيخ ابو ركاب !!

وامسكت الام البطة على الفور وذبحتها وجاء الدور على الديك فأخذت تركض وراءه وهو يقفز امامها قفزات عالية في خوف وهلع وكأنه احس بمصيره وراح خليل وفتحي يعاونان امهما فصنعا معها حلقة غير محكمة حوله ، وتسرب كثيرا من الحلقة وعاد للوقوع فيها ، واخيرا امسكت به الام وخليل يتمنى اسفا لو افلت من يدها ليمسكه هو ويؤكد لهما شطارته !

وبينما كان الديك لا يزال غارقا في بحيرة من دمه خرج خليل الى الحارة ولحق به فتحي بعد قليل .

كانا يحسان بان عندهما عيدا لا يقل شأنا عن العيد الحقيقي الذي انتظراه طويلا حتى اصبح على الابواب . عيد جاء فجأة بلا مقدمات وبلا سابق انذار عندهما فقط ، وجعل في قلبيهما رصيدا مدخرا من الاعياد. ولهذا ما اخلقه بان تعلم به العيال في الزقاق ! بل ما أحراه بان تعلم به القرية كلها فيجوبها سعد الدين المنادي من اقصاها الى اقصاها لا ناعيا اليها احد ابنائها ولا سائلا عن شيء تائه كما اعتاد ان يفعل دائما، وانما معلنا عما يجري في دارهما اليوم على قدم وساق !! وابتهج خليل عندما رأى السعدني ، وابو شده ، وشلاطه ، والتهامي ، وغيرهم قابعين بجوار دعامة عبد الهادي التي اقيمت لتسند الجدار المتداعي.

كان شلاطه يحدثهم عن محمود شرف الذي قتل في الايام الاخيرة ووجدت جثته في ساقية ((الندوية)) . وانضم اليهم خليل وشلاطه يقول في رهبة مبحوحة والجميع من حوله برهفون السمع ويمسكون الانفاس وكأنهم ينصتون الى خطبة الجمعة

ـ بالكوا يا عيال عفريته محمود شرف بتكون في عز القيالة فين ؟

وراح يجيب هو نفسه قبل ان يتساءلوا : ((بتكون عند ساقية الندوية . بتلف وتحوم حواليها وعنيها بتطق شرار

وقال السعدني والرعب يملأ قلبه :

ـ وامال يا ترى بالليل بتكون فين ؟

ـ بالليل بتنزل البلد . أبوكو محمود ابو مجاهد شافها وهو رايح يصلي الفجر)) وقال الجميع بلهفة وفي نفس واحد . ـ شافها فين ؟

ـ شافها واقفة قدام دار محمود شرف نفسه وعينها بتطق شرار وعماله تعوي زي الديب .

وقال خليل وكأنه يعرف عن عالم العفاريت ما لا يمكن لشلاطه او غيره او يتناهى اليه : ـ عارفين بتعوي ليه ؟

وهتف الجميع ايضا في نفس واحد ـ ليه ؟؟

ـ بتعوي عشان محدش لسه خد بتار محمود شرف .

وعلى الرغم من ان سيرة العفاريت كانت وما تزال من احب السير الى قلب خليل والحديث عنها من امتع الاحاديث الى سمعه ، على

الرغم من هذا فقد غير مجرى الحديث فجاة وهو يقول فيما يشبه البلاهة والعبط :

ـ تعرفوا الليلة يا عيال . عندنا مدعكه. عزومه انما عزومه مملكه. فراخ وبط ووز وحمام و..

ولم يجد فتحي ما يمنع من ان يقاطعه ليضيف بدوره شيئا من عنده فاكمل وهو ينظر اليه نظرة ذات معنى ويبتسم لانه اضاف كذبا الوز

ـ وعندنا كمان مكرونه ومهلبية ورز بلبن

واشرأبت أعناق الصغار ومالوا برؤوسهم نحو خليل وفتحي وكأنهم يلتهمون بآذانهم ما يعددانه من الوان الطعام ، وهاج لعابهم ولمعت في اعينهم رغبة عارمة كتلك التي تكون في عيون الكلاب الضاله عندما تنظر بشوق يائس الى لحم ليس لها !

ونادى خليل باعلى صوته عندما بات على قيد خطوات من دكان ابوسريع:

ـ يا ابو سريع . هات علبة دخان معسل

ثم وصل منهمكا الى الدكان واخذ مكانه بجوار محمد ابو طالب وعاد يقول في اليه بانفاس مكروبة ثائرة وقلبه يدق بعنف :

ـ هات علبة دخان معسل يا ابو سريع . ابو سريع علبه دخان معسل يا ابو سريع . هات يا ابو ..

وقال ابو سريع مغيظا

ـ الله !! جرى ايه يا واد يا خليل مالك كده انسعرت ؟ ابوسريع. ابو سريع. داهيه سرعك. مش سمتنى نفر. نفر ومضى يسأل محمد ابوطالب ومضى يسأل محمد ابو طالب

ـ دفتر بفره وايه كمان يا سيدي ربنا يلعبك مخه ؟!!

وقال محمد ابو طالب وخليل لا يزال يطلب علبة المعسل :

ـ دفتر بفره وبفرش حجر ولاعه .

وعاد خليل يركض من جديد في حارات القرية ويده قابضة على علبة المعسل وهو يحس بالنعمة على فتحي لانه رفض ان يعطيه ويذهب لشرائها بدلا منه. لقد رفض لدناوته حتى يكون في انتظار طبق العشاء عندما يخرج. ولا شك في انه قد خرج الان وانتهى الامر وجلس ليلتهم ما عليه وليضرب خليل رأسه في اكبر حائط يعجبه او في دعامة عبد الهادي ان شاء فالعيد في قلبه على وشك ان يصبح فجيعه ، واللحظات التي انتظرها طيلة اليوم هيهات ان تنظره لحظة واحدة !!

وتذكر كيف كان يحاصر امه وهي تطهو الطعام ورائحة التقلية تفح وتنطلق لتلهب خيال الجيران . لقد كان مخلصا في محاصرته لها الى النهاية فظل رابضا الى جوار الكانون في جانب بينما ربض فتحي في الجانب الاخر ينتظران معا بفروغ صبر ان يتم نضج الديك والبطه . وعندئذ راح كل منهما يطلب لنفسه كبدة البطه لانها اكبر نسبيا من كبدة الديك حتى كادا ان يتشاجرا ويتماسكا بالايدي لولا حكمة الام التي جعلتها تعطي قناصة البطة لمن يأخذ كبدة الديك ، وقناصة الديك لمن يأخذ كبدة البطة . وعادت فقسمت بينهما الارجل والرؤوس والقلوب ثم طلبت اليهما في ضيق وتوسل ان يحلا عنها ويتركاها حتى لا يقال ان المراة اكلت الزفر . لقد عاش خليل هذا كله وابى ان يترك امه لحظة واحدة رغم توسلاتها حتى ان يده قد احترقت بماء الارز الذي وقع عليها عندما كانت تصفيه ، وظل مخلصا في ملازمته لها الى ان شيع طبق العشاء للضيوف بنظرات كلها حسرة واشفاق ..!

وقدم خليل جذلانا لابيه علبة المعسل وبصره مشدود الى طبق العشاء الذي لا زال امام الضيوف لم يخرج بعد ، واستطاع ان يتبين في زحمة الاطباق الصغيرة الخاوية الطبق المنشود !!

كان يستقر فيه فخذ لا يدري ان كان للديك ام للبطه وبعض عظام اخرى لا تخلو من لحم .

وتجشأ الاب وقال وخليل يهم بأن يدور على عقبيه ليخرج :

ـ شيل يا خليل

ورفع خليل الطبق بمعاونة ابيه ووضعه على رأسه وفتحي يرمقه من الخارج وينتظره على نار .

وتعثر في عتبة المندره لفرط تسرعه وانشغاله بالتفكير في خطة الاستيلاء على الفخذ ، وكاد ان يقع بالطبق لولا انه تماسك بارادة من فولاذ ومضى به وفتحي يسرع من ورائه بينما هرعت اليه الام وساعدته في انزاله على الارض وقطط كثيرة تأتي من كل مكان وتحاصرهما .

وبأسرع من الصوب اراد خليل ان يضع يده على الفخذ ولكنه وضعها على لا شيء واكتشف بما يشبه الشعار ان لا اثر له على الاطلاق . فاطبق على الفور في خناق فتحي الذي كان جالسا يهم ان يضع بيده في فمه قليلا من الارز وقال وكأنه فقد احدى عينيه :

ـ فين الورك لحسن وركك ؟

ولطم فتحي قائلا وقد نثر الارز على ثوبه في الداخل وفي الخارج

ـ ورك ؟!! ورك ايه ؟! طب ومقام ابو ركب ما خدته ولا شفته

ولكن خليل تحسس جيب فتحي ووضع يده فيه واخرج الفخذ قائلا :

ـ الورك ده بتاعي !! انا منظر عليه من الصبح

ولم يكن يخطر بباله حين تحسس جيب اخيه انه سيجد الفخذ حقيقة، ولكنه فعل ذلك بلا وعي او تفكير كما اعتاد ان يفعله دائما كلما فقد شيئا من الاشياء الساذجة التي يلهو بها وعن له ان يشك في اخيه ؟

وقال فتحي حانقا وهو يكاد يبكي:

ـ بتاعك منين يا خي يعني كان مكتوب عليه اسمك ؟؟

ـ اي مكتوب عليه اسمي وانت مالك انت.

وقالت الام ترجو خليل:

ـ عيب يا خويا عيب ادى لخوك حته

ـ هديله بس يقعد ساكت لما نمصمص العظم ده

واحس خليل بكذب ما يقال في تمجيد الاخ وفائدته وقت الشدائد وهو يضع الفخذ بجانبه على الطبق الكبير ويسأل فتحي في انتهازية سافرة

ـ ديني كورك الشراب وناخد كورني

ـ لا يا خويا انت كورك صغيرة .

ثم اضاف وقد خشى الا يعطيه نصيبه من الفخذ :

ـ ما احنا هنلعب بها سوا

وقال خليل فجاة وهو يتميز من الغيظ :

ـ انما انت مبتهودنيش ليه ؟ مكنتش عارف تخطف رجلك اللي تنقطع ونجيب علبة المعسل بدالي؟

وقبل ان يجيب فتحي بشيء انقضت على الفخذ قطة واخذته بالمخالب في فمها وانطلقت به على سطح الدار وخليل يعدو صارخا في اثرها كالمجنون وفتحي من ورائه .

ـ بس . بس يا بتاع الكلب . بس

ولكنها لم « تبس » ومضت به بعيدا على اسطح الجيران ! !

وعاد خليل وفتحي يهبطان الدرك في قلبيهما خيبة امل وفي اعينهما تلمع دموع وجلسا يحرشان العظام بغيظ وينتظران العيد .

القاهرة — ثروت سرور